المدخل

مكونات المدخل:

أولاً :- مفهوم الشاهد البلاغي وأهمية دراسته.

- مفهوم الشاهد في اللغة والاصطلاح.

١ – المفهوم اللغوي للشهادة والشاهد.

٢ – المفهوم الاصطلاحي للشاهد.

٣ – تعريف الشواهد البلاغية، وتوضيح العلاقة بين الشاهد والبلاغة.

٤ – أهم الفروق بين الشواهد البلاغية والشواهد النحوية.

٥ – أهمية دراسة الشاهد البلاغي.

ثانيًا : علاقة الشاهد البلاغي بنظرية التناص.

١ – ما هو التناص؟

٢ – أنواع التناص.

٣ – الشاهد البلاغي ونظرية التناص.

٤ – أهمية التناص في دراسة الشواهد البلاغية.

أولاً : مفهوم الشاهد البلاغي وأهمية دراسته

مفهوم الشاهد في اللغة والاصطلاح :

١ – المفهوم اللغوي للشهادة و الشاهد :

ورد في تاج العروس: «الشهادة خبر قاطع، كذا في اللسان والأساس»[١]،....

«**ويقال**: (شهد لزيد بكذا شهادة) أي: أدى ما عنده من الشهادة، فهو شاهدٌ ج شَهْدٌ، بالفتح مثل صاحب وصحْب، وسافِرْ وسَفْر، وبعضهم ينكره»[٢].

وقال في لسان العرب: «وأشهدته على كذا فشهد عليه، أي صار شاهدا عليه»[٣].

وورد في اللسان أيضا: «وشهد الشاهد عند الحاكم: أي بين ما يعلمه وأظهره، يدل عليه **قوله تعالى**: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة ١٧][٤].

وجاء في تاج العروس: «**قال** أبو عبيدة: معنى شهد الله: في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [آل عمران ١٨] قضى الله، وحقيقته: علم الله، وبين الله؛ لأن الشاهد هو العالم الذي يبين ما علمه. **وقال** أبو العباس: شهد الله: بيَّن الله وأظهر، وشهد الشاهد عند الحاكم، أي بين ما يعلمه وأظهره»[٥].

ولكلمة الشاهد عدة معان في اللغة وردت في المعاجم، منها:

- «(الشاهد) وهو العالم الذي يبين ما علمه. **قاله** ابن سيده»[٦].

---

(١) تاج العروس ٨/ ٢٥٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣ ، وكذا ورد بالصيغة نفسها في معجم «تاج اللغة وصحاح العربية» ٢/ ٤٩١ ، وكذلك في لسان العرب ٣/ ٢٢٦ .
(٣) لسان العرب ٣/ ٢٢٦.
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٢٢٥.
(٥) تاج العروس ٨/ ٢٥٩.
(٦) المصدر نفسه ٨/ ٢٥٤.

- «(والشاهد) من أسماء النبي ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب ٤٥]، [الفتح: ٨]، أي على أمتك بالإبلاغ، والرسالة، وقيل مبينا، وقال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، قال المفسرون: الشاهد: هو النبي ﷺ»[(١)].

- «(والشاهد) اللسان، من قولهم: لفلان شاهد حسن، أي عبارة جميلة، وقال أبوبكر في قولهم:» ما لفلان رواء ولا شاهد «معناه:» ما له منظر ولا لسان»[(٢)].

- «(والشاهد): الملك. قال مجاهد: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، أي حافظ ملك، قال الأعشى:

فلا تَحْسِبَنِّي كَافِرًا لَكَ نِعْمَةً على شاهدي يا شَاهِدَ الله فاشْهَدِ[(٣)]

- وكذلك (الشاهد) يطلق على يوم الجمعة، وعلى النجم لأنه يشهد في الليل أي يحضر ويظهر.

- «والأشهاد: الملائكة، جمع شاهد، كناصر وأنصار، وقيل: هم الأنبياء»[(٤)]

٢ - المفهوم الاصطلاحي للشاهد:

الشاهد هو اسم فاعل من الفعل شهد، الذي تنبثق منه معان أهمها:

أ - معنى الحضور.

ب- معنى امتلاك العلم الناتج عن هذا الحضور.

جـ- معنى التبيين لما يعلم، والإبلاغ عما يعلم.

ولاحتواء الشاهد على هذه المعاني مجتمعة - وهو من دلالات عظمة هذه اللغة - كان له معنيان اصطلاحيان:

---

(١) تاج العروس ٨/ ٢٥٦.
(٢) المصدر نفسه ٨/ ٢٥٦.
(٣) المصدر نفسه ٨/ ٢٥٧.
(٤) المصدر نفسه ٨/ ٢٦١.

أولهما: الشاهد بالمعنى الحقيقي، ويجمع على شهود، وأشهاد، وشهداء.

ثانيهما: الشاهد بالمعنى المجازي، ويجمع على شواهد.

قال علي القاسمي في مقدمة (معجم الاستشهادات): «لكلمة الشاهد في اللغة العربية المعاصرة معنيان رئيسان:

أ- الشاهد: بمعنى الدليل، ويجمع على شواهد.

ب- والشاهد: بمعنى من يؤدي الشهادة أمام القاضي ونحوه، ويجمع على شهود وأشهاد وشهداء.

والاستشهاد في اللغة: هو إتيان المتكلم أو الكاتب بشاهد (بالمعنى الأول) يعزز رأيه ويدعمه». (١)

٣ - تعريف الشواهد البلاغية، وتوضيح العلاقة بين الشاهد والبلاغة:

الشواهد البلاغية : هي كل ما استشهد به البلاغيون من النصوص التي حازت المزية، إما في لفظها (بسبب الكناية والمجاز)، وإما في نظمها (بسبب التصرف في معاني النحو) وإما في لفظها ونظمها بسبب حيازتها للمزيتين. وهذه النصوص قد تكون:

١ - آيات قرآنية. ٢ - أحاديثا نبوية ٣ - أبياتًا شعرية. ٤ - أقوالًا نثرية.

وعرفتها الدكتورة نجاح الظهار بأنها: «كل ما يستشهد به البلاغيون من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأقوال نثرية، أو شعرية لتوضيح وبيان قاعدة بلاغية». (٢)

أما عن العلاقة بين الشاهد والبلاغة فقد بينها الدكتور مراد بن عياد **بقوله**: «وعلاقة الشاهد بالبلاغة علاقة تناص من نوع واحد خاص، تخضع فيه الأقوال المستحضرة لوظائف محددة، تمليها أهداف الدرس البلاغي عند العرب، فإذا أُخِذَ من أثرٍ مَّا جزءٌ من نصِّه وزُرِعَ في سياق مغاير من سياقات الدراسة البلاغية، فإنه يتحول من مقام

(١) مقدمة «معجم الاستشهادات» للدكتور علي القاسمي بتصرف ص ٥ www.arabization.org.ma
(٢) الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز ١/ ٥١.

إنشادي في الشعر...إلى مقام تمثلي عند البلاغيين، وعندئذ توضع الظاهرة الأدبية في النص المستحضر في مواجهة الظاهرة البلاغية فيه» [١]

٤- أهم الفروق بين الشواهد البلاغية والشواهد النحوية:

إن الدراسة تقتضي تمييز الشواهد البلاغية عن غيرها من أنواع الشواهد الأخرى، بتحديد الفروق التي تفصل بين أنواعها، والتي تجملها الأمور التالية:

١- شواهد النحو مقيدة بزمن الاستشهاد النحوي، أما شواهد البلاغيين فلا حدود لزمنها.

٢- الشواهد النحوية مناطها قياس كلام العرب، والشواهد البلاغية مناطها الجمال أيا كان مصدره.

٣- الشواهد النحوية تعنى بالنادر أكثر من الشائع، والشواهد البلاغية تعنى بالنادر والشائع.

٤- الشواهد النحوية يقع فيها الخلاف والتخريج لمناسبة الضابط النحوي عند الخلاف، والشواهد البلاغية قل أن تجد فيها خلافا أو تخريجا.

٥- الشواهد النحوية للصحة ولا تستلزم الجمالية، والشواهد البلاغية جمالية تستلزم الصحة[٢].

٥ - أهمية دراسة الشاهد البلاغي:

إذا كان الشيخ الطنطاوي في كتابه نشأة النحو **يقول**: «إن الشاهد في علم النحو هو النحو»[٣] فإنه يحق لدارس البلاغة أن **يقول**:«إن البلاغة في علم البلاغة هي الشواهد» وذلك بسبب أن علم البلاغة إنما تم استنباطه من الشواهد أولا، ثم بعد ذلك نشأ وتطور. وما كان لاستعارة امرئ القيس في **قوله**: «**قيد الأوابد**» أن تعرف، ويكون لها ذلك الصدى

---

(١) ينظر مدونة الشواهد ١/ ٣٤٩.

(٢) هذه الفروق ذكرها الدكتور ظافر العمري ، نقلا عن : ملتقى البلاغيين والنقاد www.bn -arab.com

(٣) نشأة النحو ص ٢٤٩.

في الشعر، لو لم يقلها امرؤ القيس، ويستشهد بها البلاغيون. وما كان لكناية: «**نؤوم الضحى**»أن تدرك هي الأخرى، لو لم تتفتق عن ذهن شاعر، وتجد طريقها إلى الاستشهاد والتحليل.

والبلاغة حقيقة هي الشواهد، وكل ما يكتب في كتب البلاغة إنما هو دندنة حول الشاهد، واحتفاء به وتقرب إليه أو تقريب إياه.

وكما كانت بركة الكتاب العزيز كبيرة على لغة العرب في نحوها وصرفها وشعرها ونثرها، كانت هذه البركة كبيرة على بلاغتها. **يقول** الدكتور مراد بن عياد:

> فلا يمكن النظر في تطور الاحتفاء بالشاهد الأدبي عند العرب، إلا من خلال الاشتغال ببلاغة الإعجاز، وبلاغة الأدب معا، ولا يمكن إثارة النظرية الأدبية العربية من هذه الزاوية إلا بضم أحد الشقين إلى نظيره، والحال أن بينهما مواقع متبادلة، ووظائف مشتركة، فدراسة القرآن نواة محورية استقطبت مواد أدبية هامة، من حيث الكم والكيف، فكان بعضها يستدعي بعضا، فيتولد من كل موضع قطبي من مواضع الاستشهاد مواضع أخرى تقود إليه بالنظر، ويقتضي كل استحضار بدوره ضروبا من المقارنة والموازنة والمفاضلة.[1].

ويمكن أن تجمل أهمية دراسة الشواهد البلاغية في الأمور التالية:

١ – دراسة الشواهد البلاغية تدخلنا إلى عالم من الإبداع ما زال مجهولا في تراثنا العريق، فإن معظم إبداعاتنا ما زالت كالكنوز المغلقة التي تنتظر من يكتشفها.

٢ – دراسة الشواهد ستنقل الدرس البلاغي من التركيز على دراسة التعريفات والحدود، إلى مرحلة التعامل مع الإبداع، وفهم معناه وتحليله.

٣– دراسة الشواهد البلاغية تتيح اللقاء المباشر معها، بعيدا عن عبارات الشراح، التي تكون أحيانا في واد والشواهد في واد آخر.

---

(١) مدونة الشواهد ج ١ ص ٢٧

٤- التمرس بالشاهد البلاغي، والشعور بالجمال في معناه، هو اللبنة الأولى في تربية الذوق الأدبي.

٥- دراسة الشواهد تتيح إقامة العديد من الموازنات والمقارنات، التي تكشف بجلاء مراتب من الإبداع، يصعب إدراكها بدون إقامة مثل تلك المقارنات. ونظرة إلى ما عقده الشيخ عبد القاهر الجرجاني منها تؤكد أهميتها.

٦- كثير ممن كتب في البلاغة سواء في بداية نشأتها، أوفي عهد متأخر، هم من أصحاب الانتماءات إلى فرق كلامية، ووظفوا الشواهد البلاغية لنصرة مذاهبهم، الأمر الذي حاد بالشواهد عن مسارها، ووسم البلاغة وهي علم الجمال بالصعوبة والتعقيد.

٧- عدم الاهتمام بالشواهد البلاغية، ودراستها أسوة بشواهد النحو، يكاد يكون أحد العوامل المهمة في تأخر البلاغة وتحنيطها.

٨- ولعل من أهم الأمور التي تؤكد أهمية دراسة الشواهد البلاغية، محاولة السعي إلى تغيير تلك الشواهد الموجودة في الكتب المدرسية، التي تتحدث عن المعاظلة والتعقيد باستفاضة، حتى إذا وصلت إلى جمال النظم ورقّة الأسلوب اختفت الشواهد.

٩- دراسة الشواهد البلاغية تخرجها من حالة الجمود والنمطية وضعف استكناه مواطن الجمال فيها.

***

ثانيًا :علاقة الشاهد البلاغي بنظرية التنّاص

١ - ما هو التناص؟

يكاد لا يوجد تعريف جامع مانع للتناص، لأن هذا المصطلح كما يبدو ما زال في مرحلة المخاض الولادي لتعريفه التعريف الدقيق في لغتنا العربية، ولعل السبب في ذلك أنه ترجمة للمصطلح الفرنسي المصدر: **(Intertextualite)** المكون من كلمتين و ثلاثة مقاطع:

- مكون «من السابقة: **(Inter)**، التي يفيد معناها / الاشتراك، والتداخل، والبين بين، والحركة، والانفتاح والتبادل والتهوئة»[١].

- و**(texte)**، ومعناه الأصلي النسيج.

- «وتفيد اللاحقة **(alite)**، الملتصقة بلفظ **(texte)** معنى المصدرية والنسبة. [٢].

وكل مقطع منها يلصق معنى إضافيا للمقطع السابق.

ولما كانت العربية تفضل الاختصار، وترغب في الكلمات القصار، فإن ترجمة لفظ أعجمي بهذا التركيب، والرغبة في التعامل معه، لابد أن يمر بصعوبات ما، قبل أن يبلغ مرحلة الاستقرار، في لغة تحرص على أنساب ألفاظها، كما تحرص على أنساب أفرادها. هذا بالإضافة إلى أن الترجمة عملية اجتهادية نسبية لا يتحقق الاتفاق فيها أو عليها بسهولة.

تقول الكاتبة عائشة اقليعة:

> مشكلة التعريف بهذا المصطلح، وتعدد دلالاته ومفاهيمه في الدراسات النقدية العربية الحديثة، تكمن في أن أغلب الترجمات التي

---

(١) نظرية التناص بين التراث والحداثة. رسالة ماجستير للطالب سانا عبد العزيز ص ٩٦.

(٢) ينظر المصدر نفسه ص ٩٦.

قُدمت حتى الآن هي ترجمات لأشخاص مختلفين، مكانا واتجاهات وثقافة...الخ، لذا صادف هذا المصطلح الجديد -التناص-إشكاليات و صياغات متعددة، حول ترجمته، ومفهومه، تناقلها الباحثون العرب وهي:

أ -التناص أو التناصية.

ب- النصوصية.

جـ- تداخل النصوص أو النصوص المتداخلة.

د - النص الغائب، ويقابلها النص الراهن أو الحاضر.

هـ- النصوص المهاجرة، والمهاجر إليها.

و- النصوص الحالَّة والمزاحة (الإحلال والإزاحة).

وغير ذلك من المصطلحات المترادفة، التي تشابهت في مدلولها- مع اختلافها - في مُسمى المصطلح. وتعدد المصطلحات العربية للمصطلح الغربي»التناص«يؤدي إلى الارتباك لدى الباحثين، ولكن يمكن الاستقرار على مصطلح (التناص) لكونه أكثر اتساعًا من التعريفات السابقة، حيث إنه نال قسطًا من الشهرة والانتشار على مستوى العالم العربي والغربي». [١].

وقد ظهر مصطلح التناص عند «جوليا كرستيفا[٢]عام ١٩٦٦م، إلا أنه في الأصل يرجع إلى أستاذها الروسي (ميخائيل باختين) [٣]، وإن لم يذكر هذا المصطلح صراحة،

---

(١) عائشة اقليعة/ منتدى نخبة الإبداع ، مقال بعنوان «التناص» http://www.nu5ba.net / 10-09-2008.

(٢) **جوليا كرستيفا** : بلغارية الأصل فرنسية الجنسية ، اسم معروف بين النقاد والمنظرين للمناهج الألسنية ، ولدت عام ١٩٤١م ارتبط اسمها بمصطلح «التناص» ، ذات مخزون ثقافي نقدي ضخم ، فمن ماركس إلى باختين ، ومن سوسير إلى جاكبسون ، ومن فرويد إلى لاكان ، ناهيك عن ثقافة فلسفية ومنطقية ورياضية وسيميائية قديمة ومعاصرة . ينظر التضمين والتناص وصف رسالة الغفران للعالم الآخر (نموذجا) الدكتور منير سلطان ، منشأة المعارف ٢٠٠٤ ف ، وينظر كذلك نظرية التناص بين التراث والحداثة ص ٦٠.

(٣) **ميخائيل باختين** : ناقد روسي عاش مغمورا فيما بين ١٨٨٥م – ١٩٧٥م ، واشتهر بعد وفاته ، من أهم مؤلفاته «الخطاب الروائي شعرية دستوفسكي» ، له مؤلفات متنوعة في مجال النقد الأدبي. ينظر : نظرية التناص بين التراث والحداثة ، ص ٤٥.

واكتفى بـ(تعددية الأصوات) و (الحوارية) وحللها في كتابه (فلسفة اللغة)، وكتاباته عن الروائي الروسي (دستو فيسكي) [١].

وتبعته جوليا، في دراستها (ثورة اللغة الشعرية) عرّفت فيها التناص بأنه«التفاعل النصي في نص بعينه«والتقى عدد كبير من النقاد الغربيين حول هذا المصطلح، وتوسع الباحثون في تناوله، وتوالت الدراسات حوله، وكلها لا تخرج عن هذا الأصل، ثم قام الناقد الفرنسي (جيرار جينيت) [٢]بتحديد أصناف للتناص.

أصبح التناص ظاهرة نقدية جديدة، وجديرة بالدراسة والاهتمام، واتسع مفهومه وشاع الاهتمام به في الأدب الغربي، ولاحقا انتقل هذا الاهتمام إلى الأدب العربي مع جملة ما انتقل إلينا من ظواهر أدبية ونقدية غربية، ضمن الاحتكاك الثقافي بين الأمم والشعوب.

وقد عرف النقد العربي ظاهرة «التناص» مبكرا تحت عدة مسميات مثل التضمين والاقتباس والاحتذاء والإشارة. ولعل مصطلح (السرقات) في نقدنا القديم هو أقرب هذه الأسماء إلى هذا الاسم. فالتناص مصطلح جديد لظاهرة أدبية ونقدية قديمة، فقد كانت مسألة تداخل النصوص من المسائل الجوهرية في تراثنا العربي، حيث تتبع النقاد المعاني المتكررة بين الشعراء، معتمدين على الأسبقية الزمنية للشاعر ليكون الحكم بالإبداع والخلق له أو عليه.

٢ - أنواع التناص: التناص نوعان:

أ) تناص مباشر (تناص التجلي) ويدخل «تحته ما عرف في النقد القديم بالسرقة والاقتباس، والأخذ، والاستشهاد، والتضمين، فهو عملية واعية تقوم بامتصاص وتحويل

---

(١) دستوفسكي : أديب روسي مشهور ، عاش في الفترة ما بين ١٨٢١م – ١٨٨١م ، عمل بالجيش ونجا من حكم صدر بإعدامه بسبب تهمة سياسية ، تحول بعدها إلى المجال الأدبي فأبدع عددا من الروايات التي نالت شهرة عالمية. ينظر المصدر السابق ص ٤٥.

(٢) جيرار جينيت : فهو ناقد أدبي فرنسي كبير تخصص في دراسات السرد ، ومن أهم كتبه المترجمة إلى العربية : خطاب الحكاية ، العودة إلى خطاب الحكاية ، مدخل إلى النص الجامع وغيرها. انظر : http://www.majles.alukah.net

نصوص متداخلة ومتفاعلة إلى النص، ويعمد الأديب فيه أحيانا إلى استحضار نصوص بلغتها التي وردت فيها، كالآيات القرآنية، والحديث النبوي، أو الشعر والقصة»[١].

ب) تناص غير مباشر (تناص الخفاء) وينضوي «تحته التلميح، والتلويح، والإيماء والمجاز، والرمز، وهو عملية شعورية يستنتج الأديب من النص المتداخل معه أفكارا معينة يومئ بها ويرمز إليها في نصه الجديد». [٢].

٣ - الشاهد البلاغي ونظرية التناص:

بالاطلاع على هذين النوعين من أنواع التناص، ندرك أن الشاهد البلاغي يقع في سياق النوع الأول، وهو التناص المباشر الذي يقوم به العالم في البلاغة عن وعي تام وهو يستحضر هذه النصوص، ويشير إليها، ويوظفها في أغراضه البلاغية. «ويرى (جيرار جينيت): أن الشكل الصريح للتناص هو الاستشهاد». [٣].

و«كل خطاب لا يكاد يخلو من الجهاز التمثلي طلبا للدعم والإثبات والتصديق، إذ يعتبر جزءا هاما لا يتجزأ من الصيغة الإقناعية والتداولية في المخاطبات». [٤].

ويؤكد صاحب المدونة أن «الاستشهاد الذي نطلبه في موضوع الحال يكاد يكون فريدا في البلاغة العربية. فهو يختلف عما ذكره أرسطو، إذ إنه أدرج أمثلة الاستشهاد في باب الإقناع، كعنصر من عناصر الأدلة الخارجية، من أقوال الشعراء القدامى ..... أو من أمثال العامة والحكم، أو من أعيان المعاصرين فكأن الأمثلة في مفهوم أرسطو شهادات أكثر منها استشهادات»[٥].

---

(١) شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية – www.alfaseeh.com – مقال بعنوان التناص بقلم وضحاء ، ينظر «نظرية التناص» لمختار حسني ، مجلة «علامات» ج ٣٤ ، مج ٩ ، ديسمبر ١٩٩٩ ف .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مركز النور. مقال بعنوان «التناص نهج البلاغة» بقلم علي حسن الخباز. (www.alnoor.se/defdefaut) ، ينظر «علم التناص المقارن» لـ عز الدين المناصرة ص ١٤٧ - ١٤٩.

(٤) مدونة الشواهد ١/ ١٥ .

(٥) المصدر نفسه ١/ ١٥.

ويضيف صاحب المدونة:

لكن الشاهد في الخطاب البلاغي العربي هو موضوع الدراسة البلاغية، وهو موضوع للوصف، وكذلك للحكم والمعيار أكثر منه للإقناع بالمفهوم اليوناني، والشاهد في التراث البلاغي يختلف عنه في الخطاب الأدبي. فالشاهد الشعري قد استعمل في الخطب، واستعمل في الرسائل الأدبية، وفي المقامات، لكن المقامين مختلفان، فهو في نصوص الأدب القديمة خطاب إبداعي، أو جزء من خطاب إبداعي، يقحم في نص إبداعي آخر، بيد أنه في نصوص التراث البلاغي، يكون موضوعا للدراسة والتصنيف، ومحلا للحكم والمعيار، وهو بهذا المعنى يتنزل في سياق المباحث الجمالية[1].

٤ - أهمية التناص في دراسة الشواهد البلاغية:

بلغ إيمان التناصيين بالتناص أن مثلوه بالأكسجين في حتمية وجوده واستخدامه سواء بشعور أو بلا شعور، وأن النص النقي الخالي من التناص لا وجود له إلا في عبارات آدم عليه السلام، فالتناص حقيقة ماثلة لا ينكرها أحد وبخاصة إذا كان باللفظ والمعنى، كما هو الحال في الشواهد البلاغية. ومن هنا برزت أهميته[2] المتمثلة في الأمور الآتية:-

أ- يسهم التناص في كشف العلاقات بين النصوص.

ب – يحقق ديمومة النص من الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل.

جـ – الكشف عن الدلالة الكائنة في النص، عبر معرفة المرجعية النصيّة؛ أي إلى أي شيء يرجع النص (النص الحاضر).

د – إماطة اللثام عن الأصول المكونة للنص.

هـ – يسهم في بيان قدرة كل من المبدع والمتلقي؛ الأول في امتصاص النصوص

(١) مدونة الشواهد ١/ ١٥- ١٦.

(٢) ينظر التناص بين القرآن الكريم والحديث الشريف للدكتور صبحي إبراهيم الفقي - مجلة «علوم اللغة» المجلد السابع العدد الثاني، دار غريب القاهرة ٢٠٠٤ ف.

السابقة، وخلق نص جديد من خلالها – والثاني في قدرته على فك شفرات النص الحاضر، وبيان مرجعياته النصية.

و – يحقق نصية النص.

وهنا نستطيع أن نلحظ مفارقة عجيبة، وهي أن التناص في سياق الشواهد البلاغية يكاد يكون تناصا عكسيا. ففي الوقت الذي يذوب فيه النص السابق في النص اللاحق في حالة التناص المتداول، فإن الأمر على العكس من ذلك في حالة الشاهد البلاغي، حيث يبقى هو الأصل، ويظل هو المتبوع، ولا ينصهر في سياق، بل قد ينصهر فيه السياق، أو يتلاشى ليعطي الشاهد عطاء جديدا في سياق آخر.

والقصد هنا هو تمييز الحالة الخاصة بالشواهد القرآنية عن غيرها من أنماط الاستشهاد فهذه مسألة يبدو أن لها خصوصيتها – بالنظر إلى مكانة الشاهد القرآني في قلوب المسلمين – واللجوء إلى التناص بما يمثله من أهمية هو الذي وجه معنى الشاهد القرآني في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]. إلى مرحلة تطمئن إليها النفس بعد أن تداولته مجموعة من المعاني المختلفة التي رافقته أثناء رحلته في المؤلفات البلاغية، ففي «إعجاز القرآن» جعله الإمام الباقلاني من المماثلة في القرآن الكريم قال: «كقوله:»**وثيابك فطهر**«**قال** الأصمعي:»أراد البدن«قال: وتقول العرب»فدى لك ثوباي«يريد نفسه وأنشد[1]:

ألا أبْلِغْ أبا حَفْصٍ رَسُولا فِدَىً لكَ منْ أخِي ثِقَةٍ إزَارِي»[2]

---

(١) **البيت لبقيلة الأكبر الأشجعي** : هما بقيلتان : أكبر وأصغر ، أشجعيان ، وكلاهما يقال له أبو المنهال ، أما بقيلة الأكبر من بني بكر بن أشجع ، يكنى أبا المنهال ، ويقال إنه أمد النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، ويقال = هو صاحب الخيل يوم أحد ، يعني خيل أشجع ، ويقال بل صاحب الخيل مسعر الأشجعي ، وكان بقيلة سيدا كبيرا شاعرا ، كريما ، وهو القائل وكتب بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من غزاة له :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة إزاري
قلائصنـــا هداك الله إنا شـــغلنا عنكم زمن الحصار

.انظر ترجمته في : المؤتلف والمختلف ص ٧٦ ، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٢ ص ٢٣١ ، المكتبة الإسلامية : الإصابة في تمييز الصحابة ، الجزء الأول تحت رقم ٧٢١ بقيلة الأكبر الأشجعي. http://www.al-eman.com/islaml

(٢) إعجاز القرآن ص ٨٠.

أما في كتاب «المثل السائر» فقد ذكره ابن الأثير مرتين، وحمل فيه لفظ الثياب على الظاهر **قال**: «واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل كقوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤] فالظاهر من لفظ «الثياب» هو ما يلبس، ومن تأول، ذهب إلى أن المراد هو القلب لا الملبوس، وهذا لا بد له من دليل، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ»[(١)].

ثم كرر هذا المذهب في مبحث الكناية، في سياق الشاهد القرآني ذاته **فقال**: «ومن أجل ذلك لم يلتفت إلى تأويل من تأول قوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤] أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية، لأنه ليس من الثياب والقلب وصف جامع، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحا» [(٢)].

وفي المنزع البديع للسجلماسي، استشهد المؤلف بالآية الكريمة في مبحث المماثلة، **قال**: «ومن صورها قوله ﷻ: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ الأصمعي «أراد نفسك لقولهم: فدى لك ثوباي، أي نفسي» وعليه قول عنترة[(٣)]:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ على القَنَا بِمُحَرَّمِ»[(٤)]

وتابعه في ذلك ابن البناء المراكشي في الروض المريع **قائلا**: «ومنه ما يقال له التمثيل، كقوله تعالى: «**وثيابك فطهر**» قال الأصمعي أراد نفسك، لأن العرب تكني عن النفس بالثوب». [(٥)]

ونقل محقق الروض المريع لابن قتيبة تعليقا له على الآية في كتابه «تأويل مشكل القرآن ص ١٤٢ بقوله: «أي طهر نفسك من الذنوب، فكنى عن الجسم بالثياب لأنها

---

(١) المثل السائر ١/ ٤٤.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٧٣.

(٣) **عنترة**: هو عنترة بن شداد العبسي ،. انظر ترجمته في: الشعر والشعراء ص ٥٤ ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، ١/ ٩٠ – ٩١ ، الأعلام ٥/ ٩١ ، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢/ ٥٨٧ ، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٢ ص ١٠.

(٤) المنزع البديع ص ٢٤٥.

(٥) الروض المريع ص ١١٧.

تشتمل عليه». [١]

ولكن يبقى للشاهد القرآني مجال واسع للعطاء ذلك أن «المعنى يتحدد من خلال ثلاثة طرق هي: المساق والسياق والتناص والمساق هو ما قبل الكلمة أو الجملة وما بعدها، وتلعب التراكيب النحوية أو ما يعرف بالنظم عند عبدالقاهر دورا كبيرا في ذلك. فمعنى جملة «جاء عبد الله» يختلف عن معنى «عبد الله جاء». الأولى جواب لسؤال «هل جاء أحد؟» والثانية جواب لسؤال «من جاء؟» [٢].

و «نأتي إلى هذه الآية التي يشكل علينا فيها معنى الثياب ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] ونستعين بالتناص والشعر الجاهلي لتحديد معناها:

يقول امرؤ القيس [٣]:

وإنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي منْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

وعنترة يقول:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ ليس الْكَرِيمُ على القَنَا بِمُحَرَّمِ

أي أن الثياب تعني القلب [٤].

فالشاهد البلاغي في أي نص مكتوب هو موضع البؤرة عادة، وهو كذلك واسطة العقد، بسبب أن الاختيار إنما وقع عليه لأمر يميزه على غيره من الشواهد وهو ما جعله يحظى بانتماءات متعددة:

١ - انتماء إلى نصه الأصلي الذي جاء منه.

---

(١) الروض المريع ص ١١٧.

(٢) التناص والتضاد لعابد خزندار – مقال في جريدة الرياض العدد ١٤٢٦٦ – ١٦ يوليو ٢٠٠٧ ف.

(٣) امرؤ القيس: هو حندج بن حجر بن الحارث الكندي الملك الضليل، يماني الأصل، أشهر شعراء العرب على الإطلاق. انظر ترجمته في: الشعر والشعراء ص ٢٥، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ج١ ص ٩٧ – ١٠١، الأعلام ٢/ ١١، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١/ ٢٩٧، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٢ ص ٢٧.

(٤) التناص والتضاد لعابد خزندار – مقال في جريدة الرياض العدد ١٤٢٦٦ – ١٦ يوليو ٢٠٠٧ ف بتصرف.

٢- انتماء إلى نصه الجديد الذي ورد فيه.

٣- انتماء إلى الوجه الذي جيء به من أجله، كأن يكون استعارة، أو كناية، أو نحو ذلك.

٤- وقد يكون له انتماء لأكثر من وجه، كأن يكون فيه استعارة، فينتمي للنظم الحائز على المزية في لفظه، ويكون فيه معنى أو أكثر من معاني النحو، فينتمي للنظم الحائز على المزية في نظمه، وهذا هو أرقى أنواع النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وهو في الدرجة القصوى من درجاته، والشاهد على ذلك **قوله** تعالى: ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ [مريم: ٤]:

الأول: الاستعارة:وذلك في نسبة الاشتعال للشيب، فجلبت المزية لهذا النظم من جهة اللفظ.

الثاني: معاني النحو: وذلك من طريق البناء النحوي لهذه الاستعارة، والتحول بها عن البناء المعتاد «اشتعل شيب الرأس» أو «الشيب في الرأس». إلى هذا البناء فأضاف النظم مزية أخرى إلى جانب المزية التي جاءته من المجاز [١].

وليس ذلك بخصوصية في الشواهد القرآنية –وإن بدت أكثر وضوحا من غيرها، لما له من خصوصية في مشاعر المسلمين – بل نجد مثل هذه الانتماءات في الشواهد الشعرية أيضا، وما تجده من وصف للشاهد في كتاب معين قد تجد غيره في كتاب آخر.

وكذلك تنازع أكثر من وجه بلاغي على الشاهد الواحد كما في **قوله** تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا**﴾ [يوسف: ٨٢].

أ – ففي علم البيان نجد أن هذا الشاهد يحتوي مجازا مرسلا علاقته المحلية، لأنه أطلق المحل وأراد الحال.

---

(١) أنظر «دلائل الإعجاز» ص ١٠٠ – ١٠٥ ، فقد فسر الشيخ هذا النظم الراقي الذي جاءته المزية من الجهتين : جهة اللفظ ، وجهة النظم.

ب- وفي علم المعاني نجد هذا الشاهد يحتوي إيجازا بحذف المضاف، والتقدير: واسأل أهل القرية.

يقول الأستاذ عبد السلام هارون في كتابه الشهير «معجم شواهد العربية» عن الشواهد أننا: «نجدها منثورة في مراجع شتى، ومن العسر بمكان أن يهتدي إليها الباحث، لأن الشاهد الواحد قد يستشهد به في أكثر من غرض وفي عدة أهداف علمية»[١].

وليس ذلك بعيب في الشاهد، بل هو من دواعي الاعتداد، لأن ذلك يدل على غزارة المعنى في الشاهد الواحد بحيث تجتمع فيه أكثر من خاصية، وإنما العيب فيمن أقر بلاغة الوجوه، وحاول أن ينسب الإعجاز للوجه البلاغي وهو الرماني[٢] تمشيا مع اعتزاليته في نسبة الإعجاز للبلاغة، وقد بذل الباقلاني[٣] جهدا مضنيا ليعارض الرماني في هذا التوجه، الأمر الذي اضطره ليستعرض كل شواهده القرآنية ويحاول أن يرد عليها، وهو الدافع له لاستعراض ذلك الكم الهائل من الشواهد المحتوية على ما كان يعرف في ذلك العهد «بالبديع»، ويشمل جميع الفروع التي انقسمت إليها البلاغة في العصور المتأخرة. وهذه الفكرة عارضها كذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ووظف الشاهد الواحد في مواضع

---

(١) من مقدمة معجم شواهد العربية ص ٥.

(٢) الرماني: هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني الإخشيدي الوراق، من تلاميذ ابن السراج وابن دريد. من كبار النحاة، أصله من سامراء ومولده ببغداد سنة ٢٧٦ هـ، ووفاته بها سنة ٣٨٤ هـ، وقد عابه بعض معاصريه بأنه كان يمزج كلامه بالمنطق فلا يفهم منه شيء. وللرماني نحو مئة مصنف، الذي يهمنا منها في هذه الدراسة هي رسالته المسماة: النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٢/ ١٨٩، الأعلام ٤/ ٣١٧، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢/ ٤٨٣.

(٣) الباقلاني: هو أبوبكر محمد بن عبد الطيب البصري الباقلاني، أحد تلاميذ الأشعري النابهين في الجيل الثاني، وهو مؤسس مدرسة المتشككين في علم العقائد كما كان جدليا من الطراز الأول. والباقلاني من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ، وسكن بغداد وتوفي فيها، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وقد أرسله الخليفة عضد الدولة مرة سفيرا إلى «بيزنطة» فجرت له مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. توفي الباقلاني ببغداد سنة ٤٠٣ هـ. وللباقلاني مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب إعجاز القرآن. انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي ٤/ ٥٠ – ٥٢، الأعلام ٦/ ١٧٦، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣/ ٣٧٣، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م١ ج٤ ص ٤٧.

متعددة إشارة منه إلى انتمائه إلى أنواع مختلفة من الإبداع.

ومن أعجب ما واجهني في دراستي هذه، ذلك التوجه الذي يسير في خطين متعاكسين بالنسبة للشواهد القرآنية، بين كل من «العلوي» (ت ٧٤٩ هـ) في كتابه «الطراز» و «السجلماسي» (انتهى سنة ٧٠٤ هـ من تأليف كتاب المنزع) في كتابه: «المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع».

ففي الوقت الذي خص «العلوي» مبحث التخييل بالشواهد القرآنية، وتحديدا تلك الشوهد المتضمنة لآيات الصفات، وله كلام طويل في ذلك، نجد السجلماسي قد ذهب إلى الجهة المقابلة، وخص مبحث المجاز بالشواهد الشعرية، وخلا هذا المبحث تماما من الشواهد القرآنية، كما خلا المبحث عند العلوي من الشواهد الشعرية، بل إن السجلماسي قد ذهب إلى أبعد من ذلك، عندما جعل التخييل برمته موضوعا للصناعة الشعرية خاصة[1].

(١) في الباب الرابع تحت عنوان : «من فن المقاصد في ذكر أنواع علم البديع وبيان أقسامه» ، جعل العلوي هذا العلم أصنافا ، بدأها بالتجنيس حتى بلغ الصنف السابع الذي سماه «التخييل» ، وقدم له بمقدمة هامة تبين أثر الانتماء الكلامي في مباحث البلاغة ، ولولا طولها عن هذا المقام لأوردتها ، ثم أثنى على الزمخشري صاحب هذا الرأي فقال : «ومن ثم قال الشيخ النحرير محمود بن عمر الزمخشري نور الله حفرته ، ولا نرى بابا في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع لي عونا على تعاطي المشتبهات من كلام الله تعالى وكلام الأنبياء. ولعمري لقد قال حقا ، ونطق صدقا ، ثم أقول : إن السبب في حسن موقعه في البلاغة هو ما اختص به هذا النوع من كونه موضوعا على تشبيه غير المحسوس بالمحسوس» ثم جمع تحت هذا العنوان آيات الصفات الإلهية وجعلها من التخييل. انظر الطراز للعلوي ص ٣٩٩ وما بعدها . أما السجلماسي فقد اتجه إلى الطريق المعاكسة في الجنس الثاني الذي سماه هو الآخر «التخييل» ، وقال : «وهذا الجنس هو موضوع الصناعة الشعرية ، وموضوع الصناعة في الجملة هو الشيء الذي فيه ينظر ، وعن أعراضه الذاتية يبحث» المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ص ٢١٨. ثم اعتذر لعلماء العرب الذين خلطوا بين الشعر وغيره فقال : «لكن السبب في أصحاب علم البيان ومتأدبي العرب هذا الجنس مختلطا هو أنهم لم يكونوا تميزت لهم الأقاويل الشعرية من الأقاويل الخطبية ، فلم يتبين لهم ما يخص صناعة صناعة منها ، بل كانت مختلطة عندهم. والسبب الأول في ذلك هو التباس كلياتها بموادها ، وعسر انتزاعها منها ، وغور الفحص فيها ، بخلاف ما عليه الأمر في الصناعة النظرية» المصدر نفسه ص ٢١٩. وكأني بالسجلماسي يريد أن ينأى بآيات الصفات عن الموضع الذي وضعت فيه عن طريق تحويل مسار التخييل نهائيا عن آيات الذكر الحكيم ، وربطه ربطا محكما بالشعر ، وبالأخص في ذلك النوع المسمى عنده بالمجاز فقد خلا نهائيا من الشواهد القرآنية .

ولعلني أختم بما ورد في المدونة من تساؤل حول «كيف يمكن أن يكون الشاهد شاهدا على شيء لم يساهم في بلورته، إذ يستدعى ليدعم شيئا قرره البلاغيون من قبل؟ وكيف يصبح في الآن ذاته شاهدا على مستقبل النظرية، فيمسي رصد الشاهد الأدبي حاسما في تشخيص مجرى التحولات وتشكل الأذواق؟»[1].

* * *

(١) مدونة الشواهد ١/ ٦.